

بالنعمة وحدها

ديرن كندي Darren Kennedy*
كلية اللاهوت الإنجيلية في القاهرة

"النعمة" من الكلمات الفائقة التي لا يمكن لأحدنا فهمها كاملاً في اللاهوت. فالنعمة تقع في صميم الإنجيل وهي كلمة مركزية لفهم اختبار المؤمن ليسوع المسيح. ويخبرنا بولس في أفسس ٢: ٨: "لأنَّكُمْ بِالنَّعْمَةِ مُخَلَّصُونَ، بِالإِيمَانِ، وَذَلِكَ لَيْسَ مِنْكُمْ. هُوَ عَطِيَّةُ اللَّهِ." وصيحة الإصلاح "Sola Gratia" أو "بالنعمة وحدها" تشهد على المحبة العميقة والعمل العظيم من جانب الله المثلث الأقانيم من أجلنا ومن أجل خلاصنا.

ونحن نحتفل بمرور ٥٠٠ عام على نشر مارتن لوثر بنوده الخمسة والتسعين على الباب في فيتنبرج، نشعر بحافز جديد للنظر بفرح واندهاش من جود الله ورضاه علينا غير المستحق. والمدلولات اللاهوتية لكلمة مثل "النعمة" عديدة، ولن نستوفيها كلها الليلة. ومع ذلك، أشكرُ الله على منحي هذه الفرصة للتركيز على واحدة من الحقائق الكبرى للاهوت المسيحي. وسأركز في المقام الأول على مدى هذه المحاضرة على عمل ولاهوت اثنين من أعظم المصلحين: مارتن لوثر وچون كالفن اكتشف المصلحون أن مفهوم النعمة يصف في جوهره قلب الله وطبيعته في يسوع المسيح. وهذا ما يمكن ملاحظته اختبارياً في المسيرة الروحية لمارتن لوثر حتى أصبح مصلحاً. فهو في وقت متأخر من حياته، أعاد النظر في الطريقة التي حوَّله الله بها من راهب شاب قلق وخائف إلى قائد الإصلاح. فقد عاد بالذاكرة إلى ١٥١٩، بعد سنتين من نشره البنود الخمسة والتسعين. في ذلك الوقت، كان لوثر يجاهد بشدة لفهم رسالة رومية،

* ترجمة سامح رهيف، ، تحرير لغوي ماريانا كتكوت.

لكنه ظلّ يتعثّر في عبارة "بر الله" في رومية ١٧: ١. ووصف لوثر أزمته على النحو التالي:

لأنني كرهت عبارة "بر الله" التي تعلمت أن أفهمها على أنّها البر الذي يكون الله به بارًا، ويعاقب الخطاة غير الأبرار. على الرغم من أنني عشت حياة بلا لوم كراهب، فقد شعرت بأنني خاطئ غير مرتاح الضمير أمام الله. لم أستطع أن أصدق أنني أرضيته بأعمالي. وبدلاً من أن أحب ذلك الإله البار الذي يعاقب الخطاة، في الواقع كرهته... وبئست من معرفة ما قصده بولس في هذا المقطع^١.

يحوي هذا الاقتباس عدة أجزاء جديرة بالملاحظة. أولاً، واضح أنّ لوثر كان منهمكاً في الكتاب المقدس بطريقة عميقة وتأملية. فقد حاول أن يعيش حسب الحق الذي يدرسه في الكتاب المقدس. فلاهوت لوثر لم يكن أكاديمياً فحسب، بل عملياً وشخصياً أيضاً. ثانياً، عندما فكّر لوثر في برّ الله بهذه الطريقة النظرية التي درسها، رأى عدم جدوى أعماله الصالحة، وبدأ فعلياً يكره الله الذي كان يجتهد لإرضائه. باختصار، وضعه تعليمه على طريق يؤدي بعيداً عن هدفه اللاهوتي تماماً. وأخيراً نقول إن كتابته ذلك الكلام عام ١٥١٩ يُصعّب علينا تحديد التاريخ الدقيق لبدء الإصلاح. صحيح أنّ بنود لوثر الخمسة والتسعين تمثّل بالتأكيد حدثاً هاماً في العملية التاريخية، إلّا أنّ الكثير من الجهود الإصلاحية سبقت ٣١ أكتوبر/تشرين الأول عام ١٥١٧، وكما يكشف هذا الاقتباس، لوثر نفسه لم يكن قد بلغ قمة نموه كمصلح.

بيد أنّ سرد لوثر لا يتوقف عند هذا الحد. إنّما يمضي ليكتب شهادة بليغة عن نعمة الله وتأثيرها على حياته قائلاً

في النهاية، لمّا تأملت ليلاً ونهاراً في علاقة الكلمات "لأنّ فيه مُعلنٌ برُّ الله بإيمان، لإيمان، كما هو مكتوب: «أما البارُّ فبالإيمان يَحْيَا»، "بدأت أفهم أنّ "بر الله" هو ما يحيا به الشخص البار بعطية الله (الإيمان)؛ وأنّ جملة "فيه مُعلنٌ برُّ الله" تدل على بر سلبي، يبررنا به الله الرحيم بالإيمان، كما هو مكتوب: "أما البارُّ فبالإيمان يَحْيَا." وهو ما جعلني أشعر فوراً وكأنني وُلِدْتُ من جديد، كما لو كنت قد دخلت الفردوس نفسه من بواباته المفتوحة. ومنذ تلك اللحظة بدأت أرى وجه الكتاب المقدس كله في ضوء جديد... والآن، بعد

1 Martin Luther, "1545 Preface to Latin Writings" in *Martin Luther: Selections from His Writing*, ed John Dillenberger (New York: Anchor Books, 1962), 11.

ديرن كندي: بالنعمة وحدها

أُن كنت أكره عبارة "بر الله"، بدأت أحبها وأعظمها باعتبارها أحلى العبارات، حتى أن هذا المقطع في كتابات بولس غدا لي بوابة الفردوس ذاتها.^٢

من الواضح أنّ هذا التغيير كان له تأثير جذري على حياة لوثر ولاهوته: أي عقله وقلبه. في البداية، فهمّ لوثر التبرير على أنّه مسؤولة بشرية تُقاس بالمعيار الذي يستحيل بلوغه المتمثّل في "برّ الله". وفي هذا الإطار، تكون النتيجة الوحيدة الغضب واليأس. ولكن انطلاقاً لوثر جاءت لمّا فهم "بر الله" بوصفه عطية تُعطى من جود الله. وعلى عكس الله الغاضب الذي كان لوثر يتصوره في السابق، هذا الإله المنعم يمنح "براً سلبياً" للخاطئ. أي أنه من محبة الله المعطاءة للخطاة، يُنسب بر المسيح للخطاة الذي يستحيل عليهم تحقيقه أبداً بجهودهم الذاتية.

وما يقوله لوثر عن نفسه في هذا الاقتباس يُظهر الأهمية القصوى للنعمة في لاهوت الإصلاح. فكما هو الحال في صور الخداع البصري حيث يرى المرء إما وجهين أو شمعداناً واحداً، كان لوثر يركز كثيراً في البداية على صورة واحدة لبرّ الله حتى أنه لم يستطع أن يرى الوجه الآخر الذي كان أمام عينيه. علاوة على ذلك، بمجرد ظهور الصورة الجديدة لله المنعم، عقد لوثر العزم على تكريس بقية حياته لصياغة لاهوت النعمة. وقد لخص لوثر ذات مرة موضوع حياته هذا في خطاب كتبه للمصلح فيليب ملانكتون Philip Melancthon: " ... لأنني لا أطلب ولا أعطش إلاّ للاله المُنعم."^٣

البر المُحتسب

أكد لوثر، كما تشير قصته، على نعمة الله في احتساب بر المسيح للخطاة. وهو ما يعني أن المؤمنين خطاة يُمنحون بر المسيح الغريب عنهم بالنعمة. ويشرح لوثر هذه الفكرة في تفسيره لغلاطية بتوضيح معنى "ارتداء المسيح".

2 Ibid., 11-12.

3 Denis Janz, *The Westminster Handbook to Martin Luther* (Louisville: Westminster John Knox Press, 2010), 68.

... إن ارتداء المسيح هو لبس البر والحق والنعمة، وتحقيق الناموس كله... أنت بار... لأنك بالإيمان بالمسيح لبست المسيح.⁴

بحسب هذه النظرة، يفهم لوثر المؤمنين على أنهم أبرار وخطاة في آن واحد. هم أبرار لأن الله يحسب بر المسيح لهم بالنعمة، لكنهم لم يتقدسوا تمامًا وهم يستمرون في محاربة الخطيئة في حياتهم. أمّا لاهوت كالفن فهو شديد الشبه بلاهوت لوثر فيما يتعلق بالبر المُحتسب. فهو يقول بأن النعمة جلبت التبرير والغفران مباشرةً بواسطة يسوع المسيح. وقد كتب قائلاً:

وهكذا نقول باختصار إن برنا أمام الله هو قبوله إيانا في نعمته، وبموجبه نعتبرنا أبرارًا. ونقول إنه ينطوي أيضًا على غفران الخطايا، وعلى احتساب بر يسوع المسيح لنا.⁵

وقد توسّع كالفن مثل لوثر في تشبيهه بولس في غلاطية ٣: ٢٧، حيث يقول إنَّ المسيحي المُعمَّد "يلبس يسوع المسيح." وهو ما يعني أننا نُقيّم على أساس بر المسيح. فهذا البر يحيط بنا كرداء. وعلى النقيض من التقديس، التبرير يكتمل في لحظة. فقد كتب كالفن: الله "لا يبرر جزئيًا، ولكن بحيث يجرؤ المؤمنون، وهم مرتدون طهارة المسيح، على المثل أمام السماء."⁶ بطرس، واللص الذي على الصليب، وجميع المؤمنين اليوم يرتدون بر المسيح. على هذا النحو، نحن جميعًا نقف بثقة أمام القاضي السماوي، لا بفضل أعمالنا الخاصة، بل بفضل يسوع وحده. في التبرير، لا يقع التركيز على الشخص بل على بر المسيح الفعّال. ومن المهم أيضًا أن نتذكر أننا لابسون المسيح بالعيش في اتحاد مع يسوع بقوة الروح القدس. فنحن لا ننال بر المسيح بدون العلاقة الحية مع الله في المسيح.

- 4 Bernhard Lohse, *Martin Luther's Theology: It's Historical and Systematic Development* (Philadelphia: Fortress Press, 1999) 263.
- 5 John Calvin, *The Institutes of the Christian Religion*, ed. McNeill, trans. Ford Lewis Battles, 2 vols., vol. 1 (London: SCM, 1961), III.11.2.
- 6 Calvin, *Institutes*, III.II.11.

ديرن كندي: بالنعمة وحدها

النعمة باعتبارها علاقة وليس مجرد شيء

لفهم لاهوت لوثر للنعمة فهمًا صحيحًا، لأبد من إعارة الانتباه إلى الأسس والافتراضات الفلسفية. فعقيدة المصلحين في "النعمة وحدها" جاءت على نقيض ممارسات ومعتقدات الكنيسة الكاثوليكية آنذاك.

إنَّ اللاهوت الكاثوليكي في القرن السادس عشر لم يهجر النعمة تمامًا كما زعم لوثر وغيره من المصلحين مثل كالفن. فالخلاف الأساسي لم يكمن في غياب النعمة في اللاهوت الكاثوليكي بقدر مطالبة روما بأشياء أخرى إلى جانب ذلك. ففي عظة عن غلاطية ٤: ٢١-٢٦، أوضح كالفن الأمر على هذا النحو:

فما هو أعظم خلاف لدينا مع [الكاثوليك] في هذه المرحلة؟ إنَّه يتعلق بالإرادة الحرة، والأعمال، والخدمة الاستحقاقية، وأعمال الاسترضاء عن الخطيئة، وغيرها من الأمور. يقول [الكاثوليك] إننا نستطيع أن ننال رضا الله بجهودنا الذاتية، وإننا لسنا بحاجة إلى معونة الروح القدس ومساعدته. صحيح أنَّهم يقرُّون بوجود شيء من التعاون، وأن الله يعمل فينا إلى حدِّ ما. لكنهم يقولون إننا مساعدوه، وإننا نكون غاية في الضعف وعدم المنفعة إذا لم تساعدنا فضيلتنا على كسب رضا الله. ويقولون أيضًا إن نعمة الله لا تأثير لها إلا إذا أضفنا إليها شيئًا من صنعنا. وبالتالي، فهم يبنون عقيدة على أساس الاستحقاق: إن الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها الوصول إلى ملكوت السموات هي إرضاء الله. وأنت تحتاج إلى الاستحقاق الشخصي لدفع ثمن الخطايا التي ارتكبتها.^٧

لاحظ اعتراف كالفن بوجود دور لنعمة الله في لاهوتهم. ولكن القضية عند كالفن وبقية المصلحين كانت تدور أساسًا حول «النعمة وحدها» بحيث يعود المجد كله لله، بدون إضافة استحقاق بشري. فلا يصحَّ القول بأن كنيسة ما قبل الإصلاح تجاهلت النعمة كليًا، بل أضافت إليها. وهكذا، أصبح من الشائع في العصور الوسطى الحديث عن "الإيمان والأعمال" أو "النعمة والمجهود البشري". ولكن في رأي المصلحين، كانت هذه الإضافات في الحقيقة نوعًا من الانتقاص، وفي نهاية المطاف إنكارًا كاملًا لعطايا الله العظيمة للبشرية.

والقضية هنا ليست مجرد تفاصيل ضئيلة عند المصلحين. فلاهوت النعمة وحدها يعني أن الله قد فتح الطريق لخلاص الخطاة استنادًا إلى إنعام الله علينا في

7 John Calvin, "Freedom from the Bondage of the Law" in 25 *Inspiring Sermons: John Calvin*, ed. Simon Turner, (Amazon Digital Services, 2014), Kindle 426-31.

يسوع المسيح فقط. فإذا ندنو من عرش النعمة بأيدٍ فارغة، نحن لا ندعي فضلاً ولا واسطة في خلاصنا. وقد مَيَّزَ لوثر تمييزاً نوعياً، لا كميّاً، فيما يخص النعمة وحدها برفضه المطلق لأدنى مساهمة بشرية في الخلاص. يقول لوثر في عظة عن لوقا ١٦ ألقاها سنة ١٥٢٢:

إذا كنت أرى السماء مفتوحة، ويمكنني اكتسابها عن طريق التقاط عود من القش، فما كنت لأفعل ذلك؛ لأنني لا أريد أن أكون في وضع يسمح لي بالقول: ها أنا قد كسبتها. لا، لا! ليس استحقاقاً مني بل ليكن المجد لله، الله الذي بذل ابنه لأجلي وقضى على خطيئي وجحيمي.⁸

فكرة لوثر واضحة، فهو لا يدّعي الفضل في عمل الله الخلاصي في حياته. ويُعرب كالفن عن فكرة مماثلة في كتابه "أساسيات الإيمان المسيحي" *Institutes of the Christian Religion*: "أي مزج لقوة الإرادة الحرة التي يحاول البشر مزجها مع نعمة الله لا يعدو أن يكون إفساداً للنعمة."⁹ فما يشغل كالفن في المقام الأول هو إسناد القدرة أو الفعالية للإرادة البشرية بمعزل عن الله أو بعيداً عنه.

كان أحد أسباب هذا الصراع المفصلي الطريقة المدرسية scholastic الكاثوليكية في التحدث عن النعمة بأنها "قدرة تُصَحَّح في الإنسان" أو "عادة أو فضيلة تمكننا من تحقيق الناموس بطريقة استحقاقية."¹⁰ ففي كل حالة من هذه الحالات تتحوّل النعمة إلى شيء بدلاً من أن تكون علاقة ديناميكية. ومن أعظم الاكتشافات الخفية التي أخرجها الإصلاح إلى النور هو الابتعاد عن الفهم المادي للنعمة والتركيز على الفهم الشخصي والعلائقي. ونحن نرى هذا في إقرارات الإصلاح للقرن السادس عشر. ويواجه يان روهلز Jan Rohls التقليديين على النحو التالي:

8 Martin Luther, *What Luther Says: An Anthology*, vol. II, ed. Weald M. Plass, (St. Louis: Concordia Publishing House, 1959), 923.

9 Calvin, *Institutes*, II.5.15.

10 Janz, *The Westminster Handbook to Martin Luther*, 69.

ديرن كندي: بالنعمة وحدها

بخلاف الفهم المدرسي للنعمة بأنها ميل طبيعي (خَلقة)، لا تُعْتَبَر النعمة صفة أو نزعة معينة يتم نقلها للبشر. ولكن النعمة صفة خاصة بالسلوك العلائقي الإلهي تجاه البشر الخاطئة.¹¹

وبالنظر إلى "السلوك العلائقي" المحب من الله تجاه الخاطئة، فإنه ليس من المستغرب أن كالفن كثيراً ما كتب عن النعمة باعتبارها "جوْدُ الله الأبوي". وبالمثل، فإننا نرى صدى فرحة لوثر الذي قضى حياته في البحث عن الله المنعم.

هذا مفتاح أساسي لإدراك المفاهيم الكتابية للنعمة التي لا تزال تتحدّى الكنيسة اليوم، ويجب أن نسهر على حفظ النعمة في إطارها العلائقي. ويقول جون ليث John Leith:

واجه اللاهوت المسيحي دائماً إغراء تحويل النعمة إلى شيء. فقد وقف البروتستانت الأوائل بإصرار ضد تشييء النعمة. وبالتالي رفضوا اعتبار النعمة صفة تُضَخَّ في النفس. النعمة هي اندماجُ الله شخصياً مع البشر. الله يرتبط علائقيًا بالبشر بوصفهم أشخاصًا تاريخيين أدبيين أحرارًا.¹²

لاحظ كيف يؤكد ليث على اللقاء العلائقي بين الله وبني البشر. بهذه الطريقة، لا يمكن فصل النعمة عن الله المنعم. وترجع إحدى الصعوبات التي تواجهنا في فهم نداء «النعمة وحدها» الإصلاحية إلى الفهم الصحيح لطبيعة أو واقع النعمة نفسها.

حتى في الكنائس البروتستانتية اليوم، يسهل الانزلاق مرة أخرى إلى التفكير في النعمة وكأنها شيء. ووفقاً لهذه النظرة، تبدو النعمة في كثير من الأحيان مثل وقود الحياة المسيحية، كوقود السيارة. في حين أننا قد نُعْطَى "الوقود" عطية، سرعان ما ننسى ونتمتع بالعطية بدون المعطي. وهو تشبيه سيئ لعدة أسباب، ولكن المشكلة الأكبر هي أنه يتصور فصلاً بين العطية (النعمة) ومعطي هذه العطية (الله). وقد عارض كلُّ من لوثر وكالفن هذا الفهم للنعمة بشدة. فلوثر يقول: "لذلك فالإيمان يبرر لأنه يمسك بهذا الكنز ويمتلكه،

11 Jan Rohls, *Reformed Confessions: Theology from Zurich to Barmen*, trans. Jeff Hoffmeyer (Louisville: Westminster John Knox Press, 1997), 119-120.

12 John Leith, *Basic Christian Doctrine* (Louisville: Westminster John Knox Press, 1992), 221.

أي المسيح الحاضر.¹³ أمّا كالقن فيجعل هذه الصلة أكثر وضوحًا في وصفه الثابت للمؤمن بأنه في "اتحاد مع المسيح." فبعدما اتحد المؤمن مع المسيح بالروح القدس، لا يمكنه أبدًا أن يحاول الفصل بين النعمة والخلاص من ناحية والله نفسه من ناحية أخرى. ويوضح كالقن هذه الفكرة قائلًا: "...الرب يسوع لا يعطي أي شخص التمتع بمنافعه دون أن يعطيه نفسه."¹⁴ مرّة أخرى، لا يمكننا أن نتصور أن النعمة أو الخلاص أو أي منفعة أخرى من منافع المسيح "شيء" أو "عطية" يمكن التمتع بها بدون شخص يسوع المسيح نفسه. من الواضح أن حضور المسيح الحي العلائقي لا يمكن إسقاطه من فهم الإصلاح للنعمة. عارض كلٌّ من مارتن لوثر وجون كالقن بشدة وجهات النظر المادية، وجادلًا بأن النعمة تتعلق بتفاعل الله الشخصي والعلائقي مع بني البشر. ويوضح لوثر هذا المفهوم في تعليق له على مزمو ٥١:

تدل النعمة على الرضا الذي يقبلنا به الله، غافرًا خطايانا ومبرّرًا إيانا مجانًا من خلال المسيح. فلا تعتبروها صفة (في الإنسان)، كما يحلم السفطانيون.¹⁵

لاحظ استخدام لوثر لأفعال فعالة وعلائقية في وصف نعمة الله. الله يقبلنا ويغفر لنا ويبررنا مجانًا من خلال المسيح. واضح أنّ مثل هذه النظرة للنعمة تستلزم إلها نشطًا وحيًا وفعّالًا. ففكرة النعمة تبدأ بقلب الله، لا بالمتلقي البشري، كما يكتب بولس في رومية ٥: ٨-١٠: "وَلَكِنَّ اللَّهَ بَيْنَ مَحَبَّتِهِ لَنَا، لِأَنَّهُ وَتَحْنُ بَعْدُ خُطَاةً مَاتَ الْمَسِيحُ لِأَجْلِنَا... لِأَنَّهُ إِنْ كُنَّا وَتَحْنُ أَعْدَاءَ قَدْ صُوِلِحْنَا مَعَ اللَّهِ بِمَوْتِ ابْنِهِ، فَبِالْأَوْلَى كَثِيرًا وَتَحْنُ مُصَالِحُونَ نَخْلُصُ بِحَيَاتِهِ!" في هذا الإطار العلائقي، يظل التركيز بالكامل على محبة الله النشطة للخطاة: وهذه هي النعمة. تشهد عقيدة النعمة لهذا الإله المحب لأعدائه الذي لا يحب الخاطئ بسبب صفة أصيلة في هذا الخاطئ، ولكن بسبب قلب الله المحب.

13 Martin Luther, "Lectures on Galatians" in *Luther's Works*, vol. 26 trans. Jaroslav Pelikan (St. Louis: Concordia, 1963), 130.

14 Calvin, *Institutes*, III.16.1.

15 Luther, *What Luther Says*, 603.

ليست إنكاراً لصدق العمل البشري

من أكثر الحجج المستمرة ضد النعمة وحدها وتعظيم نعمة الله وحدها الادعاء بأنها تنفي عن البشرية أي دور في الخلاص، ويبدو أحياناً أنها تنكر واقع العمل البشري. ففي الكثير من الأحيان، عقولنا الحديثة تريد أن تخلق لنفسها مكائناً، ولو صغيراً، لحريتنا بدون الله. وفي هذا الصدد عادةً ما يريد الناس التأكيد على نعمة الله ولكن بالتعاون مع قبول الفرد للمسيح. ومن هذا المنظور، يمكن للمرء أن يتصور أن نعمة الله هي المسؤولة عن ٩٩٪ من عمل الخلاص، والإنسان لا يقوم إلا بتفعيل هذا العمل بمجهود قدره ١٪ كعامل مسبب لاختيار المسيح. إلا أن المصلحين رفضوا هذا الفكر على أساس أن الكتاب المقدس يصرّ على «النعمة وحدها» من ناحية نوعية لا كمية. ويلخص روبرت چنسن Robert Jenson هذا المنطق تلخيصاً جيداً:

لا مفر في الواقع من المنطق القائل: إذا كان قراري أو عملي، في أي خطوة أو مرحلة من مراحل الحياة الروحية، يحدّد ما إذا كنت سأقدس أم لا، فإنه يفعل ذلك بالفعل، وسيكون دورُ الله مُجرّد التصديق على القرار الذي اتّخذته. وهو ما يعني أن نعمة الله ليست مجانية، ممّا يُبطل النعمة والله معاً.^{١٦}

يوضح تعليق چنسن الأهمية المركزية للنعمة وحدها في لاهوت الإصلاح لأنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحرية الله، وبالتالي بقدرة الله على إنقاذنا من الخطيئة والموت.

ورغم أن كل واحد من المصلحين وعظ وعلم على أمل أن يقبل الناس الإيمان المسيحي، فقد رفضوا الادعاء بأن مثل هذه القرار أو الاختيار يساهم في خلاصنا أو يسببه. ويعارض كالفن هذا الرأي على وجه التحديد في تعليقه على أفسس ٢: ٨-١٠.

ليزن القراء الأتقياء قول الرسول بعناية. إنّه لا يقول إننا ننلقى العون من الله. ولا يقول إن الإرادة مستعدة، ثم تُترك لتعمل بقوتها الذاتية. ولا يقول إن قوة الاختيار الصحيح ممنوحة لنا، وإننا نُترك بعد ذلك لاتخاذ اختيارنا الشخصي.

16 Robert W. Jenson, *On Thinking the Human: Resolutions of Difficult Notions* (Grand Rapids: Eerdmans, 2003), Kindle 409-14.

هذا هو اللغو الذي يتمادى فيه أولئك الأشخاص الذين يبذلون قسارى جهدهم لتقلي لنعمة الله.^{١٧}

ويشرح كالقن صراحةً أنّ حجة بولس لا تسمح بأن يضخ الله فينا القدرة على اختيار الخلاص بالمسيح، ثم يدعنا "نتخذ اختيارنا الشخصي". هذا التعليق يحتاج إلى توضيحين على الأقل. أولاً، وكما ذكرنا أعلاه، النعمة ليست قدرة، أو مادة، أو شيئاً يقدمه الله بمعزل عن العلاقة الحية التي يهبها لشعبه. إننا نختبر نعمة الله في، ومن خلال، علاقة حية مع يسوع المسيح بقوة الروح القدس. أي أننا نختبر المسيح ومنافعه، بما في ذلك النعمة والخلاص، دائماً معاً. يسوع ليس مثل «بابا نويل» الذي يحمل حقيبة الهدايا حول العالم، ولكنه يتركها للأطفال ليستمتعوا بها بعد رحيله. كلا، كل النعمة التي نتمتع بها بصفقتنا مسيحيين مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالله الحي في يسوع المسيح. ثانياً، منطق كالقن لا يعني أن اختيار الإنسان أن يقبل المسيح ويتبعه غير مهم، إنّما هو يقول ببساطة إن قرار الإنسان لا يسبب الخلاص أو يساهم فيه.

وأود أن أقترح هنا توضيحاً للمفردات. ففيما يتعلق بالخلاص، يشير مصطلح "النعمة وحدها" إلى أن الله وحده يقدم نفسه للبشر المنكسرين الأموات في خطيتهم والعاجزين تماماً عن تخلص أنفسهم أو حتى المساهمة في خلاصهم. هذا الإله المنعم لا يفعل ذلك على أساس أي شيء خارج عن ذاته، بل استناداً إلى قلب الله المحب فقط المُعلن في يسوع المسيح. أمّا الخبر المثير والمجيد للإنجيل فهو أنه بينما كنا أمواتاً في خطايانا (أفسس ٢: ١، ٥؛ كولوسي ٢: ١٣)، عاجزين تماماً عن استيعاب حاجتنا للخلاص، ناهيك عن كسب هذا الخلاص، تصرف الله نيابة عن أعدائه (رومية ٥: ٨-١٠). في النعمة يكشف الله عن ذاته بأنه أبونا المحب لا القاضي الغاضب. أمّا من حيث وساطة العمل، فالله وحده هو الذي يُحدث خلاصنا بالنعمة وحدها بحيث لا يجوز لأحد منا أن يفتخر (أفسس ٢: ٩). هنا، في النعمة وحدها، يعمل الله بمحبة من خلال يسوع المسيح باعتباره العامل الوحيد لتحقيق الخلاص. ومن حيث السببية، لا يوجد مجال لمشاركة البشر. إنها نعمة الله وحدها.

قد قلت حتى الآن أن لفظ "السببية" البشرية محظور بموجب الكتاب المقدس وإعلان الإصلاح للنعمة وحدها. ومع ذلك، أود أن أقترح أن للبشرية

17 John Calvin, *Commentaries on the Epistles of Paul to the Galatians and Ephesians*, ed. William Pringle (Grand Rapids: Eerdmans, 1948), 229.

ديرن كندي: بالنعمة وحدها

"دورًا" تقوم به في عمل الله الخلاصي. وقد اتّبع المصلحون أوغسطينوس في التشديد على أن مبدأ «النعمة وحدها» لا يقلل من أهمية وصدق العمل البشري. ويشرح جون ليث هذه الفكرة قائلاً:

عَرَفَ أوغسطينوس ولوثر وكالفن تمام المعرفة أنّ الخلاص إذا كان، من وجهةٍ ما، هو عمل الله مائة بالمائة، فهو من منظور آخر عمل بشري حقًا. ومع ذلك فهو عمل بشري مدفوع بالنعمة الإلهية. وفي غياب التأكيد على صدق العمل البشري، فإنَّ مبدأ النعمة المُسبِّقة *preventive grace*، أو النعمة وحدها، أو النعمة التي لا تقاوم، يصبح مدمرًا للإنسان.¹⁸

وتساعدنا مقولة ليث في ترتيب وتفسير لاهوت النعمة. إنّ نعمة الله العجيبة بالذات هي التي تبدّل قلب الإنسان في علاقةٍ محبةٍ وتستخرج الحب والقبول من الإنسان. بهذا المعنى، هناك بالتأكيد دور للإنسان. فكما تشرح "قوانين دُورت" الكنسية *Canons of Dort*: "[النعمة] لا تعمل في الناس كما لو كانوا كتلاً أو حجارة...".¹⁹ ليس السؤال عما إذا كان للبشر دور في الخلاص أم لا. فعلى أقل تقدير، جملة "الله يخلصنا بالنعمة" تنسب لنا دور المفعول به المباشر لعمل الله. المفعول به المباشر في هذه الجملة، أي الضمير "نا" في كلمة يخلصنا، ضروري ولكنه ليس المسبب.

إلا أن دور المؤمنين في كلّ من التبرير والتقديس يزيد على ذلك. فدعوة الله للاتحاد بالمسيح تُغيّرنا في علاقة حية تتجلى في الأقوال والأعمال. ولنُعدّ إلى تشبيه السيارات البسيط للحظة واحدة. أود أن أقترح أن الأنشطة البشرية الحرة تلعب دورًا مشابهًا لعادم السيارة الدائرة. فكما لا يستطيع أحد أن يجادل بأن عادم السيارة هو الذي يسبب دورانها، كذلك يجب ألا نظن بأي حال أن قراراتنا وتصرفاتنا تسبب خلاصنا. ومع ذلك، فالسيارة بالضرورة تنتج العادم في ديناميكية تشغيل محركها. وكذلك المؤمنون يعيشون حياة الإعلان والخدمة بشكل طبيعي وبحرية في ديناميكية خلاص الله المجاني.

دعا المصلحون الناس باستمرار وبلا كلل إلى الإيمان والعمل لأنهم أدركوا أن هذين هما العنصران الأساسيان للحياة المسيحية. وهم لم يفعلوا ذلك لأنهم

18 Leith, *Basic Christian Doctrine*, 222-3.

19 'Canons of the Synod of Dort,' in *Creeds and Confessions of Faith in the Christian Tradition*, vol. II, part 4, ed. Jaroslav Pelikan and Valerie Hotchkiss (London: Yale University Press, 2003), 587.

كانوا يحسبون أنهما يسببان الخلاص، ولكن على سبيل الطاعة الشاكرة لنعمة الله في يسوع المسيح. وعند لوثر وكالفن على السواء، كانت حياة النعمة المسيحية مغامرة حية ونشطة ومثيرة. فالنعمة في فكر المصلحين، تُمكن البشر وتمنهم الحرية الحقيقية في العلاقة بالمسيح. استمعوا إلى وصف لوثر لحياة الإيمان المسيحية:

يا له من إيمان حي، عامل، نشط، قوي! لذا يستحيل عليه ألا يقوم بأعمال حسنة باستمرار. إنه لا يسأل إذا كان يجب القيام بأعمال حسنة، بل يقوم بها من قبل أن يُطلب منه.²⁰

ومن الواضح أن مثل هذه الحياة النشطة لا تجعل الأفراد المسيحيين مجرد قطع خاملة على رقعة الشطرنج. فالقضية اللاهوتية الرئيسية هي قضية علة ومعلول، سبب ونتيجة. ويشرح لوثر هذه الفكرة قائلاً: "نحن لا نصبح أبراراً بأداء أعمال برّ، ولكن بعد أن نُجعل أبراراً، نُؤدي أعمال برّ."²¹ وبالمثل، يصرّح كالفن بأن الأعمال البارة هي "ثمرّة ونتيجة للنعمة."²²

ربما أحد البراهين الأكثر إقناعاً على تأكيد كالفن على العمل البشري يمكن العثور عليه في حياة المسيحيين الذين يسعون إلى ممارسة تلمذتهم المسيحية وفقاً للاهوتية. فقد وصف أحد الباحثين مؤخرًا تراث كالفن بهذه الطريقة:

لقد شكّل نوعاً ديناميكياً من المسيحية الغربية حيث الإيمان بفعالية النعمة الإلهية لا يحدّ جدية السعي البشري مطلقاً، وإنما يحفّزه بشدة، حيث يرتبط فيه الوعي القوي بالخطيئة بسعي جاد نحو الفضيلة، لا يقل عنه تصميمًا. وهو ما أنتج عددًا من المضامين، مثل أخلاقيات العمل التي تُعتبر المهنة دعوة إلهية.²³

أصلي أننا جميعًا نختبر ونعيش النعمة هنا في الشرق الأوسط اليوم.

- 20 Martin Luther, *Commentary on Romans*, Trans. J. Theodore Mueller (Grand Rapids: Kregel, 1976), xvii.
- 21 Martin Luther, "Disputation against Scholastic Theology, 1517" in *Luther's Works*, vol. 31, trans. Harold J. Grimm (Philadelphia: Fortress Press, 1957), 12.
- 22 Calvin, *Institutes* II.3.13.
- 23 Alexandre Ganoczy, 'Calvin's Life' in *Cambridge Companion to John Calvin* ed. Donald K. McKim (Cambridge: Cambridge University Press, 2004), 24.

الخاتمة

في ختام كلمتي، أود أن أتطرق إلى مفارقة خفية. في احتفالنا بمرور ٥٠٠ سنة على تسمير لوثر بنوده الخمسة والتسعين على الباب في فيتنبرغ، نتناول منها خمسة تصريحات تحوي كلمة «وحده» أو «وحده». والصعوبة هنا هي أن المعنى الأساسي لكلمة «وحده» أو «وحدها» ينفي وجود أي شيء آخر، بل ينفي أي تصريحات أخرى تحوي الكلمة نفسها. أعتقد أن فهم المصلحين للنعمة يساعدنا على فهم كيفية عمل هذه التصريحات الحصرية وتعاونها معاً.

قد قلت إنَّ "النعمة" عند لوثر وكالثر وغيرهما من المصلحين ليست شيئاً، بل شخصاً أو علاقة مع يسوع المسيح نفسه. في هذا التعريف، تعني "النعمة وحدها" بالضرورة "المسيح وحده". وبالمثل، نحن نختبر هذا المسيح المنعم من خلال إيماننا الموهوب لنا من الله. إنَّ قول "النعمة وحدها" هنا أيضاً يؤدي على الفور إلى فهم "الإيمان وحده" باعتباره السبيل الوحيد لاختبار نعمة الله في يسوع المسيح. فإذا التفتنا إلى الكتاب المقدس، لا يمكن العثور على هذه القصة الراديكالية والثورية عن الله المنعم المُعلن في يسوع المسيح إلا في الموضوع الذي يضمن لنا فيه الله وحده بأن يقابلنا، أي في كلمات الكتاب المقدس. ولوثر نفسه صارع طوال حياته لفهم هذه النعمة التي لا يُسبَرُ غورها، ولم يمكنه العثور على هذه الحقيقة، مراراً وتكراراً، إلا في وعود الكتاب المقدس الثابتة. وإذا صحَّت هذه الادعاءات من جانب الإصلاح، فما من مجال لأي واحد منا أن يفتخر لأنَّ الله وحده هو الذي يستحق أن يأخذ كل المجد. بهذا المعنى، يرتبط كل تصريح من تصريحات "وحده/وحدها" ارتباطاً حيويًا بالآخر. وهي مجيدة وملهمة ورائعة اليوم كما كانت منذ ٥٠٠ سنة عندما نشر لوثر بنوده الخمسة والتسعين.